

◆ مدى الأصالة فى شعر الطبيعة بالأندلس

كان من المسلمات البدئية لدينا - فى عهد التلمذة بالمدرسة الثانوية ، والكلية الجامعية معاً - أن الشعر الأندلسى قد برع فى وصف الطبيعة براعة لا يقاس بها غيره ، وأن جمال الأندلس بجمالها الخضر ، وسهولها الياض ، وجداولها المترققة ، ورياضها المخضلة ، وترفها الناعم المريح ، كل ذلك قد ألهم الشعراء ما لم يلهم به بلد آخر من بلاد العربية فى المشرق ! ثم مضت بنا الأيام على هذا الاعتقاد ، ونحن نقرأ ما لدينا من شعر الطبيعة بالشام والعراق وغيرهما ، فنجده لا يقل براعة عن شعر الأندلس .. ثم نعيد الكرة إلى شعر الطبيعة بالأندلس فنعجب بكثرته النسبية ، ولكننا نتساءل : أى إعجاز مكين قد ارتفع به عن شعر الشرق فى نظر الباحثين فلا نكاد نجد من القلائد المعجزة ما يطمئنا إلى ما نشأنا عليه فى أزمنة الدراسة ؟ أليكون لدى هؤلاء المؤلفين من مدرسين وجامعيين ما ليس لدينا من النصوص ؟ هل عندهم من مخطوطات الأندلس ما يملكون الفصل به فى قضية لا يتيسر لنا الحكم فيها على وجهها الصحيح ؟ .. إنهم حين يستشهدون على براعة الأندلس البارعة فى الشعر الطبيعى لا يأتون لنا بما نجعل من القصائد .

إنَّ المختارة شائعة ذائعة ، ونحن قد أطلنا الوقوف أمامها إطالة مُغرقة ، فلم ترتفع بنا عن أرض الشرق إلى سماء ذات صور وتهاويل .. أليكون الفرق بين شعر الطبيعة فى

الإقليمين ضئيلاً محدوداً كما نراه ، ويكون هؤلاء الدارسون الأفاضل قد وقعوا تحت تأثير استنتاج مخطئ أتى به باحث متقدم فتلاه اللاحقون ؟ لقد مكثنا نتردد فى الجزم بقول فصل ، حتى وجدنا أستاذنا الدكتور أحمد أمين ينشر بحوثه المعروفة بمجلة الثقافة (سنة ١٩٣٩) عن جنائية الشعر الجاهلى على الأدب العربى ، فيتعرض لشعر الطبيعة بالأندلس كى يقول فيه :

«لقد كانت الأندلس أغنى بقاع المسلمين منظراً ، وأوفرها جمالاً ، أبدعها الخالق أيما إبداع ، وصاغها خير صياغة ، وَلَوْنُهَا أجمل الألوان ، فلا يستطيع من يراها إلا أن يغنى ، ولا من شاهدها إلا أن تفتنه ، ومن الحق أن شعراءها غنوا أكثر من غيرهم ، وتفننوا فى ذكر محاسن الطبيعة أيما تفنن ، ونبغ فيهم أمثال ابن خفاجة الملقب بشاعر الطبيعة ، ولكنى لا أكنم القارئ أنى قرأت كثيراً من شعره ، وشعر غيره من الأندلسيين ، فكان شعورى نحوهم أنهم أجادوا الصياغة ولم يوفقوا أن ينفخوا الروح ، شعرهم تمثال بديع لا حياة فيه إلا فى القليل النادر ، شعرهم من رأسهم لا من قلبهم ، أكثر جهدهم مُوجَّه إلى البحث عن تشبيه رائع ، واستعارة بديعة تعجب علماء البيان لا نتيجة شعور يتدفق ، يريد أن يحتضن الطبيعة لجمالها ، ولا هو صرخة إعجاب خرجت من أعماق القلب فى بساطه فطرية ، ولا هو تمجيد للجمال ولا هو إحساس من الشاعر باندماج الطبيعة فى نفسه واندماج نفسه فى الطبيعة ، حتى كأنه هو وهى - أو هى وهو - وحدة لا انفصام لها ، كلا ، ولا هو شعور بحياة الطبيعة وقوة نبضها كما ينبض القلب ، ولا هو شعور الظمآن يريد أن يرتوى ولا يرويه إلا جمال الطبيعة ، ثم هو يعبُّ منه وينهل ، وكلما عبَّ ازداد لذة وازداد ظمأ .

لا شئ من ذلك ، وإنْ عثرنا منه على شئ فهو القليل النادر الذى لا يروى ظمأ ، إنما أكثره من قبيل الخيال المصطنع ، يتعمق فيه الشاعر ليظفر باستعارة ، أو يسبح فى الآفاق ليأتى ببعض المحسنات البديعية»^(١) .

صادف كلام الدكتور أحمد أمين فى حينه هوئى لدى نفسى ، ولكن نفراً من كبار الباحثين قد تصدوا لمعارضته ، فحاولوا أن ينقضوا وجهات كثيرة من أنظاره المختلفة ،

(١) فيض المخاطر ج ٢ ص ٢٥٨ .

وقد تعرض الدكتوران عبد الوهاب عزام (بالثقافة) وزكى مبارك (بالرسالة) للتعقيب على آرائه فى الأدب بعامة ، ومن بينها ما يتصل بشعر الطبيعة الأندلسى ، وننقل هنا طرفاً مما قاله الدكتور زكى مبارك ، لنستطيع بعد ذلك أن ننصف شعر الطبيعة الأندلسى على ضوء الاختلاف المتباعد ميمناً وشمالاً فى الآراء .

قال الدكتور زكى مبارك :

«هل من الحق أن الأندلسيين لم يحسوا الطبيعة ولم يتذوقوها ، كما قال أحمد أمين؟ إن المعروف عند جميع أدباء اللغة العربية أن الأندلسيين تفرقوا فى وصف الطبيعة ، فكيف تفرد أحمد أمين بنكران ذلك ؟ أليكون أعلم الناس بالأدب ولا نعرف ؟ هذا والله أعجب العجب ..!! إن الأدب الأندلسى قد تعرض للضياع منذ أجيال ، فلو قلنا إن ذلك الأدب ضاع منه أكثر من تسعة أعشاره لما بعدنا عن الصواب ، ومع ذلك بقيت آثاره تشهد بأن العرب فى الأندلس أحسوا الطبيعة والوجود إحساساً قليل النظائر والأمثال .

معاذ الأدب أن نفهم الطبيعة كما يفهمها أحمد أمين فنظنها مقصورة على الشجرة والزهرة ، إنما الطبيعة كتاب الوجود بما فيه من حَجَرٍ وَمَدَرٍ ، وشجر ونبات ، وماء وجماد ، والطبيعة الشاملة تظهر بعظموتها وجبروتها ممثلة ناطقة فى أكثر ما كَتَبَ الأندلسيون ، ولو شئت لقلت إنهم بالغوا فى ذلك حتى قاربوا الإسفاف ، فهل كانوا يعلمون من وراء الغيب أن سيجىء فى أواخر الزمان من يهتمهم بالغفلة عن تذوق الطبيعة والوجود»^(١) .

ثم أخذ الدكتور يستشهد بأبيات أندلسية فى الطبيعة لا نظنها بعدت عن مثل الدكتور أحمد أمين ، فهى من الذبوع والسيرورة بحيث يعرفها أكثر القراء ، ولكن اختلاف الرأى بين الباحثين الكبيرين قد نشأ من نقطة واحدة ، هى ما ينبغى أن يتسم به شعر الطبيعة فى الأدب العربى ، وبإيضاح هذه النقطة الهامة ينكشف مقطع الرأى دون نزاع .

(١) عن مجلة الرسالة - العدد ٣١٩ ، سنة ١٩٣٩ م .

قرأ الدكتور أحمد أمين نماذج كثيرة للشعر الأوربي في الطبيعة ، فرأى أن أكثر المناظر الطبيعية في الغرب لدى شعرائه الكبار توحى بمعان رائعة في وحدة الوجود وتناسقه ، وتلهم أفكاراً حية عن الزمان والمكان ، والحب والخلود ، والماضى والحاضر ، والأزل والأبد ، فالشلالات المنحدرة في تدفق ، والبحر الممتد في سعة وعمق ، والغابات ذات الشجر الملتف ، والطير المغرد ، والجبال المتوجة بالثلوج ، كل أولئك مما يلهب خيال الشاعر الأوربي ، فيقبس منها بوارق الإبداع ، ويخلع عليها من ذات نفسه ، فيراها ذوات أرواح وأصداء وأصوات ، ويتخيل لها تاريخاً حافلاً يمتلئ بالفرح والألم ، والنشوة والحسرة ، والصعود والهبوط ، والتقييد والانطلاق ... كما أن الشعر العربي يقف عند المعنى الجزئى ، فإذا وصف طائراً أو زهرة ، جعل يترصد ألوان التشبيه ومناحيه في الرأس والجناح والريش لدى الطائر ، وفي الكم والأريج واللون والورق لدى الزهرة ، مكتفياً بذلك عما يفيض فيه الشاعر الأوربي من الاهتمام بالجواهر الكلى والإطار الشامل ، مظهرًا فلسفة الفكرة آنًا ، ورقة الهمس والحنين آنًا آخر ، مما يُفاجئ القارئ بإحساس جديد تمر به نفسه دون أن يرهق فكره بمختلف التشبيهات الذهنية ، والتحاسين اللفظية التي نجد كثيرًا منها في الشعر العربي .. هذا إلى أن شعر الطبيعة في الأدب العربي - مشرقاً وأندلساً - لا تنفرد فيه الطبيعة بالموضوع غالباً ، فهي تأتي في قصيدة المدح أو الرثاء أو الغزل استطراداً ، فالشاعر ينظر إليها معجلاً ، فيلمم ببضعة أبيات ثم ينتقل إلى ما يريد ، فوصف أبى تمام للربيع في قصيدته الشهيرة :

رَقْتُ حَواشِي الدَّهْرِ فَهِيَ تَمرُمرُ وَغَدَا الثَّرى فى حَلْبَةٍ يَتَسَكَّرُ
تَرَلْتُ مُقدِمَةَ المَصفَرِّ حَميدَةً ويد الشِّتاء جديدة لا تُنكَرُ

وأبيات ابن الرومى :

حَيَّتْكَ عِنا شِمال طاف ريقها بجنّة نَعَمَتْ رَوْحاً وريحاناً
هبت سحيراً فَنَجَّى الغصنُ صاحبه سرّاً بها ، وتداعى الطير إعلاناً

كل ذلك وعشرات من أمثالها جاء فى قصائد المديح عَرَضًا ، ومثله فى الأندلس كثير من شعر ابن هانئ ، وابن حمديس ، وابن زيدون ، أما أن تكون الطبيعة ذات استقلال خاص بالقول ، فهو ما لم يظهر بكثرة كاثرة إلا عند بعض الشعراء فى البلاط الحمدانى ، كالصنوبرى ، والنامى ، وكشاجم ، والسرى الرفاء ، وهو بعد لا يتجاوز الأبيات القليلة ، فليس يصدر عن نَفْسٍ جياش متدفق ، يُرسل القولَ إرسالاً ، كما ينحدر الماء من أعلى الجبل إلى منحدر السفح ، أما الشعر الغربى فالتبيعة ذات حيز كبير مستقل ، نرى من الاهتمام بها لدى الشعراء ما يوحى بعظم تأثيرها الخالب ، حتى إن شعراء الملاحم وشعراء المسرح لا يعفون آثارهم الرائعة من الوصف الطبيعى ، ويرون فى الافتتان بالطبيعة ما يضىء على الملحمة البطولية والمسرحية التمثيلية بهجة ومتعة ، مع اتساع الشعر الغنائى لتصويرها والافتتان بجمالها كل الافتتان ! وهذا ما يطلبه الدكتور أحمد أمين فى الأدب العربى فلا يجده ، وكأن يأمل أن يرى فى أدب الأندلس ما يشير إليه ، إن عَزَّ أن يجد ما يشابهه ، فلم يقع على شىء ، وهذا ما دعاه إلى نقد الأندلسيين .

أما الدكتور مبارك فلا يريد أن يخلط الأدب العربى بغيره ، فإذا كان شعراء الأندلس قد أكثروا القول فى شعر الطبيعة فقد قاموا بجهدهم المشكور ، وزاحموا المشاركة ، وربما تفوقوا عليهم فى الكثرة الكمية ، وهذا وحده ما يميز للدكتور أن يباهى بما قالوه ، وأن يعنف فى نقد الأستاذ أحمد أمين عنفاً كان الأجدر ألا يكون .

على أننا بعد ذلك نتجه إلى صميم الموضوع فنسأل : أكان شعر الطبيعة فى الأدب الأندلسى موازياً لأخيه المشرقى فى القيمة الفنية لم يكد يزيد عنه شيئاً ، أم أنه احتذاه بدءاً ثم استطاع أن يسير فى طريق التقدم الابتكارى خطوات وثيدة ؟ وإذا فعل ذلك فإلى أى أمد سار ؟ إننا إذ نجيب عن هذا السؤال إنما نقدم للقارئ ما يفيد :

من الخطأ الذى يقع فيه أرباب الموازنات بين الأدبين أنهم يجعلون جميع ما قاله المشاركة يقف أمام ما قاله الأندلسيون ، ونسوا بذلك شيئاً واضحاً ، هو أن عمر الأندلس الأدبى أقل بكثير من عمر المشرق ، فالأدب الجاهلى مثلاً أدب مشرقى ، وأدب صدر الإسلام وعصر بنى أمية أدب مشرقى ، وأدب السنين الأولى لعهد بنى العباس أدب

مشرقى أيضاً ، ولكنها كلها لا تدخل فى باب الموازنة ، وذلك لأمر واضح هو أن أدب الأندلس إلى أوائل عهد بنى العباس لم يكد يولد بعد ، وعلى ذلك فهو حفيد لما تقدمه من آداب هذه العصور ، وإذا أردنا أن نقيم موازنة بينه وبين أدب مشرقى فلتكن الموازنة مع أدب حفيد مماثل ، أمّا الآداب السابقة فهى آباء وأجداد للأدبين معاً ، ولا يليق فى باب الموازنة العادلة أن يذهب بفخر هذا الميراث الحفيل حفيد دون حفيد ، فإذا كان لدينا من جدة متأصلة فى شعر الطبيعة جاهلياً وأمويّاً فهى مما لا يندرج فى حساب أحد ، وإنما الذى نسأل عنه إذ ذاك : هل نمت هذه الجدة فى أدبٍ ما فواصلت سيرها المنتظر ، أو أن الجمود قد وقف بها دون الأطرّاد فى هذه الدائرة المحددة ؟

وإذا كان من المتعارف عليه اصطلاحياً - ولا مشاحة فى الاصطلاح - أن أدب الطبيعة يشمل الطبيعة الحية ، كالحیوان ، والطیر ، والطبيعة الصامتة ، كالنبات ، والجبال ، والحدائق ، والغابات ، والبحار ، والسموات - أو بعبارة أخرى يشمل ما سوى الإنسان ، مما يرسم فى صفحة الحياة - فإننا حين نتصفح الشعر العربى نجده فى عصرى الجاهلية والإسلام قد اهتم بالطبيعة الحية أكثر من اهتمامه بها فيما بعد .. فتحدّث الشعرُ الجاهلى حديثاً مطيلاً عن حيوانات البادية ، من ناقة ، وفرس ، وذئب ، وكلب ، وشاركه الأدب الأموى اهتمامه بحيوان البيئة وطيورها ، وإن قلّ الحديث عن هذه الطبيعة الحية نسبياً فى الأدبين الأندلسى والعباسى معاً .. ويجب أن نفرق هنا بين نوعين من الشعر فى الطبيعة الحية ، النوع الأول - وهو ما يعرف بالوصف - ذلك الذى يقف عند الأعضاء والملامح والأجزاء ، فيصورها تصويراً جزئياً حسياً ! وهو موفور كثير فى كل أدب ، حتى فى آداب عصور التدهور والانحطاط على نسبة بين الجودة والرداءة ، أما النوع الثانى - وهو الذى يبعد عن الوصف الحسى إلى الحديث عن الخواطر والشجون لدى الطير والحيوان - فقد بدأت ظواهره فى الأدبين : الجاهلى والأموى ، وكان الظن بها أن تنمو فى الأدبين : العباسى والأندلسى ، ولكنها تحجرت أو كادت فى الطبيعة الحية ، واكتفى الشعراء برسم الظواهر الحسية مما يقف عنده البصر وحده ، وهو مما عيب على الأدب العربى بعامة .. والحق أن الشاعر الجاهلى كان أصدق فطرةً ، وأخلص طبيعةً من ذوى الثقافات البيانية ،

والتوليدات الذهنية فى عصور الصنعة والاحتفاء .. إِنَّ الشَّنْفَرَى مثلاً يصاحب الوحش فى
البيداء بروح إنسانية ، ويقول عن أصدقائه من العجماوات : «هم الأهل ، لا مستودع
السر عندهم بذائع» .. ثم تأخذه الرحمة بالذئب فيتابعه حين يلتمس القوت فلا يجده ، وإذا
ذاك يعوى فتخف إليه الذئاب عاديات مسعدات ، فإذا أقمن المناحة ورأين عدم جدواها
فى الشعب والرئى لجأن إلى الصبر والاستسلام .. كم كان جميلاً من الشنفرى أن يتابع هذه
المخلوقات الجائعة ، ثم يتعاطف معها فيقول :

فلما لواه القوت من حيث أُمُّهُ دعا فأجبتَه نظائر هزل
فضجَّ وضجتُ بالبراح كأنها وإياه نوح فوق علياء ثكل
عَوَى وَعَوَتْ ثم ارعَوَى بعد وارعوتُ وللصبر إن لم يسعف الشجو أجمل^(١)

ثم نجد هذا التعاطف يتقدم خطوات أخرى فى العصر الأموى ، إذ يركب الأعرابى
ناقته فيسمعها تحن ، ولم تسر بعد كثيراً حتى تتعب ، فيدرك أنها تعالج من الشوق ما
يُعالج ، ويراه غريبة مثله ، فلا بد أن يسعد الغريب الغريب ! ثم ينقلب هذا التعاطف بين
الإنسان والحيوان إلى إيثار يصدر عن محبة وإخلاص ، فيودُّ الأعرابى لو خلص قلبه من
الشوق ، فيهديه إلى ناقته ليساعدها على الحنين ! والله هذا الإيثار السمع ، وهذا الشعور
الرائع يحيش به بدوى فطرى فيسامى أعظم شعراء الوجدان حين يقول :

دع المطايا تنسم الجنوبَ
إن لَهَا لَنَبَأٌ عَجِيْبًا ..!
حينها وما اشتهكت لغوبًا
يشهد أن قد فارقت حبيبا
ما حملت إلا فتى كئيبا

(١) لعل الشنفرى يذكرنا بتعاطف عنتره حين يقول عن جواده :

فَارْزُورٌ مَنْ وَقَعَ الْقَنَا بَلْبَانَهُ وشكا إلى بعيرة وتحمُّم
لو كان يدري ما المحاورَةُ اشتكى ولكن لو عَرَفَ الكلامَ مُكَلِّمى

يسرُّ مما أعلنْتُ نصيًّا
لو ترك الشوق لنا قلوبًا
إذن لآثرْنَا بهن النيبَا
إن الغريب يسعدُ الغريبًا

وشاعر كالفرزدق ليست تشيع الرقة العاطفية بين ما عُرِفَ من أشعاره ، ولا فيما تُنَوَّلُ من أخباره ، بل ربما كان إلى كثافة الحس ، وهمود الشعور ، وغلظة الطبع ، أقرب من نظرائه ، ولكنه يتحدث عن الذئب مرتين ، فينبجس قلبه عن رقة لا نعرفها لديه .. إن الشاعر الذى افتخر بأنه لم يبك على زوجته كَجَرِيرٍ حين لحقت بالفناء ، فالمرأة أهون من أن يبكى عليها رجل :

وأهون مفقود إذا الموت ناله
على المرء فى أصحابه من تقنعا
هذا الجامد الصارم يجد ذئب الصحراء دانيًا من طعامه ، فيقاسمه زاده ، ويصيح به فى مودّة :

تَعَشَّ فَإِنْ عَاهَدْتَنِي لَا تَخُونَنِي
وَأَنْتَ أَمْرٌ يَا ذئب والغدر كنتمَا
ولو غيرنا نهت تلتمسُ القَرَى
نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَا ذئبُ يصطحبان
أَخْيَيْنِ كَانَا أَرْضَعَا بِلَبَانِ
أَتَاكَ بِسَهْمٍ أَوْ شَبَابَةِ سَنَانِ

ثم يتحدث عن موقف آخر مع ذئب استضافة فى مكان يعرف بالغريين فيقول :

وليلة بتنا بالغريين ضافنا
تَلَمَّسْنَا حتَّى أتانَا ولم يَزَلْ
ولو أنه إذ جاءنا كان دانيًا
ولكن تنحى جنبه بعد ما دنا
فقاسمته نصفين بينى وبينه
وكان ابن ليلى إذ قرى الذئب داره
على الزاد ممشوق الذراعين أطلسُ
لندن فطمته أمه يتلمسُ
لألبسته لو أنه كان يلبسُ
فكان كقيد الرمح ، بل هو أنفَسُ
بقية زادى والركائب نُعَسُ
على طارق الظلماء لا يتعَبَسُ

هذا الانجذاب العاطفى نحو الحيوان والطير - مما يتدرج فى باب الطبيعة الحية - قد انقطع أو كاد فيما تلا العصر الأموى من عصور ، فالبُحْثَرِيُّ يتحدث عن الذئب كما تحدث الفرزدق ، ولكن لا نجد من التعاطف والرحمة ما هو جدير بشاعر كالبحتري ، بل نجد من الافتعال والتلفيق ما ينبئ عن عاطفة متحجرة سمحت له أن يقول :

طواه الطَّوى حتى استمر مريره	فما فيه إلا العَظْمُ والروحُ والجِلْدُ
سما لى وبى من شدة الجوع ما به	بيداء لم تعرف بها عشية رغد
فأوجزته خرقاء تحسب نصلها	على كوكب ينقضُ والليل مُسَوْدُ
فَحَرَّ وقد أوردَتْهُ منهلَ الرَّدَى	على طمأ لو أنه عذب الوردُ
وقمتُ فجمعتُ الحصَى واشتويتُهُ	عليه وَلِلرَّمْضاءِ من تحته وَقَدْ
ونلت خسيساً منه ثم تركته	وأقلعتُ عنه وهو منعفر فرْدُ

والشريف الرضى - ذلك العربى العلوى الهمام - ينحو منحى البحتري فيقول عن ذئبه :

ولمَّا عَوَى والرمل بينى وبينه تَيَقَّنَ صَحْبِي أنه غير راجع

وهكذا نفتش عن أدب الحيوان والطير فى شعر بنى العباس والأندلسيين ومن يليهم ، فلا تجد غير الوصف فقط ، مما لا يستثير العواطف ، أو يكشف عن التعاطف والتألف .. ولدينا قصائد عباسية كثيرة فى الحيوان لعشرات من الشعراء ، ولكن قصارها أن يتجه وجهة المتنبي - شرقاً - حين قال فى أسد البدر بن عمار :

أمعفر الأسد الهزْبَر بسوطه	لمن ادخرت الصَّارِمَ المسلولا
ورد إذا نزل الجزيرة شارباً	ورد الفرات زئيره والنيلا
ما قوبلت عيناه إلا طُنَّتَا	تحت الدُّجَى نار المجوس حلولا
يطأ الثرى مترفقاً من تيهه	فكأنه آسٍ يجسُّ عليلاً

أو تتجه وجهة ابن حمديس بالأندلس حين يصف الأسد فيقول :

هزبر له فى فيه نارٌ وشفرة
سراجاه عيناه إذ أظلم الدجى
يصلصل رعدٌ من عظيم زئيره
له دَبٌّ مستنبط منه سـوطه
كما يستوى لحم القتيل على الجمر
فإن بات يسرى بات الوحش لا تسرى
ويلمعُ برقٌ من حماليقه الحمر
تـرى الأرض منه وهى مضروبة الظهر

فمع جمال هذا الوصف الرائع لدى المتنبي وابن حمديس ، وعشرات ممن يردون
موردهما فى الاهتمام بالهيكل الظاهرى دون اتساع النظرة الإنسانية وشمولها ، فإننا نرى
أن شعراءنا العرب قد وقفوا عند الصورة البصرية موقفاً كان من الحسن أن يتجاوزوه ،
وهذا شأنهم جميعاً - باستثناء أبى العلاء فى شعر الطبيعة الحية - شرقاً وغرباً .

على أن الحمام قد فاز بنصيب كبير من القول ، فكل عاشق تهيج لواعجه صدحات
الحمام ، فيعبر عن شجونه مستطرداً إلى وصفها ، وأدب الحمام أكثر من أن يحصر ،
وأوضح من أن يُدَلَّ عليه ، وهو على درجة قريبة من التشابه بين المشرق والمغرب ، فإذا
قال الشاعر الشرقى :

ألا يا حمام الأيك إلفك حاضراً
أفق لا تنح من غير شئ فإننى
ولو عاً فشطت غربة دار زينب
وغيصنك مياد ففيم تنوح ؟
بكيْتُ زماناً والفؤاد صحيحُ
فها أنا أبكى والفؤاد جريح

قال الشاعر الأندلسى :

ألا يا حمام الأيك مالك باكياً
تغن ولا تنشج فإلفك حاضراً
وقلبك خلُو من تباريح لوعتى
وغيصنك نضر والجناب مريعُ
قريبٌ وإلفى غائبٌ وشسوع^(١)
وقلبى بلوعات الفراق صديق

(١) شسوع : بعيد .

والاحتذاء هنا واضح سافر ، وهو مما لا يُحمد للمتأخر إذا صدر عن رغبة التقليد لا عن تجربة توجب التنفيس .. وشعر التجربة الصادقة لا يخفى ، ففيه من حرارة الانفعال ، وتوهج العاطفة ، وكمون اللوعة ما لا يخفى على البصير .. لقد كان أبو فراس الحمداني أسيراً في بلاد الروم ، يبعث قصائده إلى ابن عمّه كي ينهض إلى فكاكه متوسلاً شاكياً ، ثم طرق سمعه ترجيعُ وَرَقَاءِ هتوف ، تنوح دون أن تذوق من طارقات النوى ما ذاق الأمير الشاعر ! ولكنها وهى الطليقة السراح تبكى وتنحب دون المكبل الأسير ، فانطلق أبو فراس يبثها الشجن ، ويخبرها عما تجهل من أمره ، ويهتف فى آهة هادئة مشجية :

أقول وقد ناحت بقربى حمامةٌ	أيا جَارَتَا لو تعلمين بحالى
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى	ولا خطرت منك الهموم ببال
أتحملُ محزون الفؤاد قوادم	على غصن نائى المسافة عال
أيا جارتُما ما أنصف الدهر بيننا	تَعَالَى أقاسمك الهموم تعالى
تعالى ترى روحاً لى ضعيفة	ترددُ فى جسم يُعَذَّبُ بال
أضحكُ مأسورٌ وتبكى طليقةٌ	ويسكت محزون ويندب سالى ؟
لقد كنتُ أولى منك بالدمع مقلّة	ولكنّ دمعى فى الحوادث غالى

هذا أبو فراس بالمشرق .. أما المعتمد بن عباد بالأندلس فأشدّ منه لوعة ، وأعظم مأساة ، لقد حبسه يوسف بن تاشفين بالعدوة ، ولم يرحم ملكه الضائع ، ومده السالف ، وبلاءه المشكور فى موقعة الزلاقة حين تلاقى الجمعان ، بل زاد فقيّد يديه وقدميه ، وأرهق زوجته وأطفاله بما يقصم الظهر بعد نعيم وارفٍ ، وعز حافل ، ومجد سعيد ! ولم يجد الملك الأسير غير الشعر يبثه حنينه ويودعه شكواه . وقد عبرت به أسرابُ القطا طليقةً غير مقيدة ، فتمنى أن يكون مثلها يسرح فى فضاء الله دون إرهاق ، ولحقه شعوره الشاعر ، فدعا لها بالصيانة والعصمة ، ولأفراخها بالماء والظل ، فإن أفراخه لا يجدن منهما شيئاً ! ونفّس عن صدره بهذه الزفرة ذات اللهب الحبيس :

بكِتُ إِلَى سَرْبِ الْقَطَا إِذْ مَرَرْنَ بِي
وَلَمْ يَكْ وَاللَّهِ الْمُعِيدُ حَسَادَةً
فَأَسْرَحَ لَا شَمْلَى صَرِيحٍ وَلَا الْحِشَا
هَنِيئًا لَهَا إِنْ لَمْ يَفِرْقْ جَمِيعَهَا
وَأَنْ لَمْ تَبْتَ مِثْلَى تَطِيرُ قُلُوبَهَا
لِنَفْسِي إِلَى لُقْيَا الْحَمَامِ تَشَوْفُ
أَلَا عَصَمَ اللَّهِ الْقَطَا فِي فِرَاخِهَا
سَوَارِحَ لَا سَجْنَ يَعُوقُ وَلَا كَبْلُ
وَلَكِنْ حَنِئًا إِنْ شَكَلَى لَهَا شَكْلُ
وَجِيعَ وَلَا عَيْنَايَ يَبْكِيهِمَا ثَكْلُ
وَلَا ذَاقَ مِنْهَا الْبَعْدَ عَنْ أَهْلِهَا أَهْلُ
إِذَا اهْتَزَّ بَابُ السَّجْنِ أَوْ صَلَّصَ الْقَفْلُ
سِوَايَ يَحِبُّ الْعَيْشَ فِي سَاقِهِ حَجْلُ
فَإِنْ فِرَاخِي خَانَهَا الْمَاءُ وَالظَّلْ !

هذه التجربة الصادقة لا يمكن أن تكون تقليدًا لأبى فراس ، وإنما هي شعور إنساني صادق يهتز به أديب حسَّاس ، وهى بعدُ نموذج جيد لما نفتقده من أواصر التعاطف بين الإنسان والطائر فى أدبنا العربى ، وأى تعاطف حىّ أبلغ من قول الملك الأسير :

أَلَا عَصَمَ اللَّهِ الْقَطَا فِي فِرَاخِهَا فَإِنْ فِرَاخِي خَانَهَا الْمَاءُ وَالظَّلْ !

وبعد فلقد طال تطوافنا حول أدب الطبيعة الحية فى المشرق والأندلس ، وانتهى بنا المسير دون أن نجد بهما ما يصلح أن يكون غمًا طبيعيًا لبذرة الشعر الجاهلى ذات التعاطف الإنسانى الشفيق ، وسنبحث الآن عن أدب الطبيعة الصامتة فى الأندلس لنرى مداه فى الطرافة والتجديد .

قلنا فى صدر هذا البحث إننا نتساءل عما إذا كان شعر الطبيعة فى الأدب الأندلسى موازيًا لأخيه المشرقى فى القيمة الفنية ، لم يكد يزيد عنه شيئًا أم أنه احتذاه بدءًا ثم استطاع أن يسير فى طريق التقدم الابتكارى خطوات وئيدة ، وإذا فعل ذلك فإلى أى مدى سار ؟ وهذا السؤال لا يزال يتطلب الإجابة فيما يختص بالطبيعة الصامتة ، وهى المتبادرة إلى الذهن بداهة حين نتحدث عن شعر الطبيعة بالأندلس ، فيماذا نجيب ؟ ...

إذا كان الأدب الأندلسى بعامة قد أخذ يستقل ويتميز ، ويدعم كيانه الذاتى منذ عهد الخلافة فى زمن الناصر ، فإننا نجعل من أدب هذه الفترة وما تلاها من العصور ، مجال الحديث عن شعر الطبيعة ، فإذا أردنا أن نلتفت إلى المشرق إذ ذاك فإننا نجد أيضًا قد

استقل بأخصب عهود الطبيعة فى تراثه ، إذ إن البلاط الحمدانى بحلب قد جمع حوله من عشاق الطبيعة نفراً غير قليل ، وكأنى بهؤلاء ومن جاء من بعدهم رأوا المتنبى يسد عليهم منافذ القول فى المديح ، وينهض صرحه الشامخ أمام سيف الدولة ، فيكاد يحجب عنه سواه على كثرتهم الزائدة ، وجهدهم الحفيل ، وإذ ذاك وجدوا فى الطبيعة عزاءً وسلوى ، فانطلقوا يصفون هذه البيئة الترفه الفاخرة ، وقد برع منهم من حمل اللواء ، وتقدم الموكب ، وهو شاعر الطبيعة الوصاف أبو بكر الصنوبرى فتابعه وزاحمه فى اتجاهه السرى الرفاء ، وكشاجم ، والخالديان ، والوَأَوَاءَ الدمشقى ، والزاهى ، والناشئ ، وعبد الحسن الصورى ، وأبو الفرج البغاء ، وابنًا ورُقاء ، والخباز البلدى ، والواسانى ، وغيرهم ممن تحدث عنهم يتيمة الدهر بإفاضة وإعجاب .. وكان الشعر الحمدانى فى هذا العصر الذهبى يسطر صفحة ذهبية للأدب العربى فى القرن الرابع ، ويُحدث تأثيره المدوى فى شتى الأمصار العربية ، إذ كانت دواوين شعراء بنى حمدان تصل إلى الأندلس ومصر وفارس وبغداد ، فيعكف عليها الورَّاقون نسجًا ، لتباع بمغريات الأثمان .. وطالما عقدت مجالس الأدب ببغداد فى دار الوزير المهلبى ، ومحافل الشعر بأصبهان فى حضرة الصاحب بن عباد ، وكلها تدور حول شعر بنى حمدان .

تقدم الصنوبرى شعراء عصره فى الهيام بمحاسن الطبيعة ، فأكثر الحديث عنها إكثاراً لا يقف عند حد ، حتى لقد قَسَمَ القول فيها إلى أبواب متميزة ، فباب للروضيات يتحدث عن سحر الحقائق والبساتين ، وباب للزهريات يصف الأقحوان ، والسوسن ، والشفيق ، والبهار ، والآذريون ، والنرجس ، والخَيْرَى ، والنسرین ، والورد ، والنيلوفر ، والياسمين ، ويقيم المناظرات بين نوع ونوع ، ويفضل صنفاً على صنف ، وقد تقدم ابن الرومى إلى نحو ضئيل من ذلك ، ولكنه على يدى الصنوبرى وأضرابه قد أصبح بدعة العصر ، وأسلوب الوصف ، حتى عُرِفَ بعض الشعراء بالتعصب لنوع معين من الأزهار ، يبدئ فى أمداحه ويعيد ، كما عُرِفَ الوَأَوَاءَ بحب النرجس ، والسرى الرفاء بحب الورد الأحمر ، واشتهر أبو بكر الخالدى بوصف شقائق النعمان.. هذا فى الزهريات ، أما الأثمار فما أكثر الحديث عن النارج ، والليمون ، والبطيخ ، والتين الأسود ، والتفاح ،

والشمام ، وأما المائيات فما أكثر الحديث عن السحاب ، والأنهار ، والسواقي ، والبرك ،
والأسماك ، والثلجيات ، وأما الفصول فقد ذكر الشعر في الربيع ، والصيف ، والشتاء ،
والخريف .. هذه الأشعار الطبيعية جميعها قد انتقلت إلى الأندلس وأحدثت أثرها النفاذ .

ونحن حين نقرأ ما لدينا من هذه الأشعار ، نجد أنها تتشابه وتتقارب ، فهي تقوم على
الصورة الحسية ، ويقلُّ بها ما سميناه بالتعاطف الوجداني ، ولا تكاد تجد فروقاً واضحة
بين شاعر وشاعر ، فالصنوبري - على زعامته - قريب مختلط بالسرى الرفاء وكشاجم
في منحاه وطبيعة جوه وتقيد انطلاقه .. ولا أدري لماذا أضيّق بأشعار الطبيعة الوصفية التي
ألمس فيها إصرار الشعراء على أن تكون أشعارهم نماذجَ للتطبيقات البلاغية والبديعة ؟
فهي معرض حسن للتشبيه ، والاستعارة ، والطباق ، والجناس ، ولكن الصورة الناهضة
خلف الاستعارة والتشبيه باهتة الملامح ، ضائعة القسّمات .

لقد قال الصنوبري كثيراً في الأنهار ، واختص نهو (قويق) بأكثر من عشر قصائد ،
ولكن إحداها لا تبلغ من نفسى - على كثرة صورها الحسية - مبلغ البيت الأخير من قوله
في هذا النهر ، وكان يعمر بالماء شتاء ويحف صيفاً ، فتصيح فيه الضفادع :

قويقُ إذا شمّ ريح الشتاء	أظهرت يهّاء وكبراً عجيباً
وإن أقبل الصيف أبصرته	ذليلاً حقيراً حزيناً كئيباً
إذا ما الضفادع نادينه	قويقُ قويقُ أبى أن يجيباً

وأبو العباس النامى أطال القول في السحاب ، وجرى مع شعراء بنى حمدان فى
أوصاف التدفق والانصباب ، وبكاء المزن ، وضحك الرياض ، ولكنه أبدع حقاً حين
قال :

خيلى هل للمزن مقلّة عاشق	أم النار فى أحشائها وهى لا تدرى
أشارت إلى أرض العراق فأصبحت	وكاللولؤ المبتول أدمعها تجرى
سحاب حكت ثكلى أصيبت بواحدٍ	فعاجت له نحو الرياض على قبر
فوشى بلا رقم ، ونقش بلا يد	ودمع بلا عين ، وضحك بلا ثغر

أبدع لأنه تعدى الصورة البصرية إلى استكناه السحابة ، ومحاولة استبطانها ، وخَلَعَ الحياة عليها ، وهذا جيد طريف .

انتقلت هذه الثروة من أدب الطبيعة إلى الأندلس ، وأدباء الأندلس مولعون بعدُ بكل شرقى شائق ، وطبيعة بلادهم الزاهرة الناضرة مما يوجب الاحتفاء بهذا اللون واقتفائه ، بل إن ابن خفاجة - وهو أكبر شعراء الطبيعة بالأندلس - كان يُسمى بالصنوبرى تشبيهاً له بأبى بكر ، وكان فخوراً بذلك ، وقد عكف على ديوانه واقتفاه ، ولا نريد أن نقول إن الشاعر الأندلسى كان مقلداً يقتصر على المحاكاة ، ولكن نريد أن نقول إنه وجد عند الصنوبرى ما ليس لدى غيره مما يوافق مزاجه ، ويروى أحاسيسه ، فتشرب روحه ، ثم انطلق إلى أجواء الشعر ليوقع على قيثار جديد .

تقرأ شعر الطبيعة فى الأندلس فتأخذ عينك روضة فسيحة ذات أزهار متشابهة ، وثمار متقاربة ، وأغصان مورقة ، لا تطالعك غالباً بما لا تعهد ، ولكنها تنقل إليك صورة تعرفها ، ومع ذلك تهش لها ، وتقف عندها ، وترحب بها . وبين هذه المشتبهات المتفتقات ترى على أبعاد متفاوتة شيئاً طريفاً ، كأنك تراه لأول مرة ، فتسرع خفيفاً إليه ، وتطيل عنده الوقوف .

ترى زهراً متشابهاً يعجبك بروائه ، وتراه لا يَقِلُّ عن نظائره ، فهو مما تعهد وتعرف ، ويمثله قول ابن خفاجة :

عن صفحة تندى من الأزهارِ
أخلاف كل غمامة مدرارِ
درر الندى ودراهم النوارِ
جذل وحيث الشط بدء عذارِ
والطل ينضح أوجه الأشجارِ
من ردف رابيةٍ وخصر قرارِ
والصبح يسفر عن جبين نهارِ
خلعت عليه ملاءة النوارِ

وكمامة صدر الصباح قناعها
فى أبطح رضعت ثغور أقاحه
نشرت بحجر الأرض فيه يد الصبا
فحللت حيث الماء صفحة ضاحك
والريح تنفض بكرة لمم الربا
متقسم الأحاظ بين محاسن
وأراكة سجع الهديل بفرعها
هزت له أعطافها ولربما

الصور كثيرة ، والنَّظْمُ قوى متماسك ، ولكن الشاعر صانع ماهر ، لم يعطك من عنده الكثير ، وإنما قدم لك نموذجاً متقارباً مما نعلم ، ولنبعد عنه قليلاً إلى ابن سهل لنسمعه يقول :

انظر إلى لون الأصيل كأنه لا شك لون مودع لفراق
والشمس تنظر نحوه مصفرة قد خمشت خدًا من الإشفاق
لاقت بحمرتها الخليج فألفًا خجل الصبا ومدامع العشاق

فلون الأصيل يوحي بأنه مفارق مودع ، والشمس عاشقة حزينة ، تخمش خدها من الإشفاق ، ثم تسقط فى الماء لترى فى شفقتها الدامى خجل الصبا بين مدامع العاشقين ! تصوير يقترب من الحياة قليلاً ، ويكاد ينفخ الروح فيما يصف ، وإنه لجيد رائع لو لم يكن سبقه ابن الرومى بقوله المبدع :

وقد رنقت شمس الأصيل ونفضت على الأفق الغربى ورساً مززعجاً
وودعت الدنيا لتقضى نحبها وشول باقى عمرها فتشعشعاً
ولاحظت النوار وهى مريضة وقد وضعت خدًا إلى الأرض أضرعاً
كما لاحظت عواده عين مدنفٍ توجع من أوصابه ما توجعاً
وظلت عيون الروض تخضل بالندى كما اغرورقت عين الشجى لتدمعاً
يراعينها صوراً إليها روانيا ويلحظن الحاظاً من الشجو خُشعاً
وبين إغضاء الفراق عليهما كأنهما خلا صفاء تودعاً!

وإذا كان فيما تقدم لابن خفاجة وابن سهل ما يذكر بالمتعارف المعهود ، فلنبعد قليلاً عما نعرف ، ولنمض وثيداً إلى الطريف الجديد .

نرى الآن فى الآداب العالية الرفيعة أن النسيب العاطفى لا يكاد يذكر إلا من خلال الطبيعة ، لأنها الإطار البديع لصور اللقاء والسمر ، فعلى ضفاف الأنهار ، وتحت شتبك الأغصان ، وفى الليلة القمرء ، ومع النسيم الهادئ الوئيد يجلو تناجى الأرواح ، وتهامس الأفئدة ، وامتزاج النفوس ، ومظاهر الطبيعة هى البريد الأمين الذى ينقل عن

المحب لَوَاعِجَهْ وأحاسيسه ، فللرشاش المتقاطر ، وللشفق الوردى ، والدَّرُّ المتجمد فى أعالى الغصون ، ولنفحات الزهور واختلاج المياه رموز عاطفية تكشف عن معانٍ حبيسة فى نفوس العشاق ، وما أفصحها من رموز تُشافه الإحساس ، وتنقل المعانى بدون حروف وكلمات ! وقد وجدنا لدى ابن زيدون - وهو العاطفى الصادق اللوعة ، الجياش الحنين - قصيدة فى وصف الطبيعة من خلال نوازعه وأشجانه ، تقرب كثيراً من الأدب العالمى فى عصرنا الراهن وما سبقه من عهود الابتداع والتجديد ، وهى خطوةٌ بديعة فى أدب الطبيعة العربى ولعشاق الأدب الأندلسى أن يعتبروها مظهرًا من مظاهر التجديد العاطفى المصور ، وقد اعتبرها بعض النقاد دليلَ حيوية ابن زيدون ومظهر ارتقائه الفكرى بين معاصريه ، فهو يقول موجهاً حديثه لولادة .

إِنِّى ذَكَرْتُكَ بِالزَّهْرَاءِ مَشْتَاقًا
وللنسيم اعتلالٌ فى أصائله
والروض عن مائه الفضى مبتسمٌ
يوم كأيام لَذَاتٍ لَنَا انصُرْمَتْ
نلهو بما يستميل العين من زهر
كَأَنَّ أَعْيْنَهُ إِذْ عَايَنْتِ أَرْقَى
وَرَدُّ تَأَلَّقَ فى ضَاحَى مَنَابِتِهِ
سَرَى يُنَافِحُهُ تَيْلُوفَرٌ عَبَقُ
كُلِّ يَهِيحُ لَنَا ذَكَرَى تَشَوْقُنَا
لَا سَكَنَ اللهُ قَلْبًا عَنْ ذِكْرِكُمُو
لو شاء حَمَلَى نَسِيمُ الصَّبْحِ حِينَ سَرَى
لو كَانَ وَفَى الْمُتَى فى جَمْعِنَا بِكُمُو
كَانَ النَّجَارَى بِمَحْضِ الْوَرْدِ مِنْ زَمَنِ
فَالآنَ أَحْمَدُ مَا كُنَّا لِعَهْدِكُمُو

وَالْأَفَقُ طَلَقٌ وَمَرَأَى الْأَرْضِ قَدْ رَاقَا
كَأَنَّهُ رَقَّ لى فَاغْتَلَّ إِشْفَاقًا
كَمَا شَقَقْتَ عَنِ اللَّبَّاتِ أَطْوَا
بَتْنَا لَهَا حِينَ نَامَ الدَّهْرُ سُرَّاقَا
جَالِ النَّدَى فِيهِ حَتَّى مَالِ أَغْنَاقَا
بَكَتْ لِمَا بَى فَجَالِ الدَّمْعِ رَقْرَاقَا
فَازْدَادَ مِنْهُ الضَّحَى فى الْعَيْنِ إِشْرَاقَا
وَسَنَانُ بُبَّةٍ مِنْهُ الصَّبْحُ أَحْدَاقَا
إِلَيْكَ لَمْ يَعُدْ عَنْهَا الصَّدْرُ أَنْ ضَاقَا
فَلَمْ يَطْرُبْ بِجَنَاحِ الشَّوْقِ خَفَاقَا
وَأَفَاكُمُو يَفْتَى أَضْنَاهُ مَا لَاقَا
لَكَانَ مِنْ أَكْرَمِ الْأَيَّامِ أَخْلَاقَا
مِيدَانُ أَنْسٍ جَرِينَا فِيهِ أَطْلَاقَا
سَلَوْتُمْ وَبَقِينَا نَحْنُ عُشَاقَا!

فهذه الصرخة اللهيقة قد ارتفعت على جناح الطبيعة إلى أفق وضىء ، إذ يتضاءل جوارها أكثر ما نعهد من الوصف البصرى الذى يقف عند الجزئيات دون أن يفرغها فى روح كلى عام ، وهى شبيهة بما نجده لدى شيلى ، وتينسون ، وودلر ، من كبار شعراء الإنجليز ، بل إنها لتذكرنا بمثل قول شيلى : « إِنَّ رَجَعَ الْأَحْزَانُ بَعْدَ خُفُوتِ الصَّوْتِ يَبْقَى مَرْدِّدًا فِي الْأَفْتَدَةِ . ولنشر البنفسج بعد موته طيبٌ فى الأنوف ، وأوراقُ الورد بعد ذبولها تنثر على فراش الحبيب ، وهكذا ذكرياتك تظل بعد ذهابك ماثلة ! » .. تمامًا والله كما خلدت ذكريات ولادة فى الزهراء ينفج بها النسيم فى الروض المبتسم عن مائه الفضى ، ويعبر عنها الندى الجائل فى أحداق الزهر حتى مالت منه الأعناق ، والورد الأبيض المتفتح فى الضحى تفتحاً زاد ضوء النهار إشراقاً أى أشراق !

ولا أدرى لماذا تُذكرنى هذه القصيدة الفريدة بأختٍ لها قالها ابن خفاجة شاعر الطبيعة بالأندلس ، والقصيدتان لِيَسْتَا فى موضوع واحد حتى يجوز لى أن أعقد الشبه بينهما بهذه السهولة ، ولكن اختلاف الموضوع لم يمنع اتفاق الإطار ، والإطار هاهنا هو الطبيعة المفتان ، فقد نزل ابن خفاجة أَيْكَةً فناءً ، فذكرته عهده بالأنس مع حبسية فقيدة ودَعَتِ الحياة ! وقد هاجت الذكرى شجونه فبكى ! وجعل النسيم يراوحه فيتشققه متحسراً ، ولكنه لا يجد العبق الذى كان يعهده مع حبسيته ، وقَطَعَ الشاعر يومه بالأيكة ، فلما همت الشمس بالمغيب وعلت وجه النهار كآبة كابية تَذَكَّرَ مغيب حبسيته بمغيب الشمس ، فسارع إلى قبرها باكياً ! بالله إن الطبيعة هنا ذات روح غير معهود فى أكثر ما نظم شاعرها الكبير ، فالأيكة والريح والأرج ومغيب الشمس ، كل ذلك ممتزجٌ بعاطفة أخرى تهز كيان الشاعر وتقوده قسراً إلى الظلام ، وهناك يصرخ صرخته اليائسة ويتساءل عن اللقاء الموعود : متى ، وأين بعد أن صدعت الشمل أيدى الحوادث ؟ ! إنه يقول :

ألا أذكرتني العهد بالأنس أيكة	فأذكرتُها نوحَ الحمام المطوقِ
وأكببت أبكى بين وجدٍ أناخ بى	حديث وعهد للشبية مخلقِ
وأنشقتُ أنفاس الرياح تعلّلا	فأعُدُّ فيها طيب ذاك التَنَشُّقِ
ولما علّت وجه النهار كآبةً	ودارت به للشمس نظرة مشفقِ

عظفتُ عَلَى الأَجْدَاثِ أَجْهَشُ تَارَةً
وَقَلْتُ لِمُغْفٍ لَا يَهْبُ مِنَ الْكَرَى
لَقَدْ صَدَّعَتْ أَيْدَى الْحَوَادِثِ شَمْلَنَا
وَإِنْ تَكُ لِلْخُلَيْنِ تَمَّ التَّقَاءُ

وَأَلْثَمَ طَوْرًا تَرْبَهَا فِى تَشْوُقٍ
وَقَدْ بَتُّ مِنْ وَجْدٍ بَلِيلٍ مُؤَرِّقٍ
فَهَلْ مِنْ تَلَاقٍ بَعْدَ هَذَا التَّفَرُّقِ ؟
فِيَا لَيْتَ شَعْرَى أَيْنَ أَوْ كَيْفَ نَلْتَقَى ؟

بعض الناس لا يعتبر هذه القطعة الفذة من شعر الطبيعة ، وربما فضل عليها قصيدة
لكقصيدة ابن خفاجة :

لله نَهْرٌ سَالٌ فِى الْبَطْحَاءِ
مَتَعَطَفٌ مِثْلَ السَّوَارِ كَأَنَّهُ

أَشْهَى وَرُودًا مِنْ لَمَى الْحَسَنَاءِ !
وَالزَّهَرُ يَكْنُفُهُ مَجَرَّ سَمَاءِ

ولكن الذين يعلمون أن الطبيعة ملهم مؤثر ، ومذكر يقظ بشجون الأمس ،
وسوالف العهد يعرفون كم كان الشاعر موفقاً فى استلهاها ، وأظنه نظم هذه الأبيات فى
سهولة متيسرة ، حيث لم تجبره على انتزاع الصور البيانية من تشبيه واستعارة ليثقل بها
حديثه - كعهدنا به - وإنما انطلق مع طبعه فى غفوة من سيطرة التصوير الحسى لينقل عن
خاطره بدون تكلف .. لقد كان ابن خفاجة مغرمًا بالطبيعة حقًا ولكنه مع ذلك كان مغرمًا
بأن يقال إنه شاعر الطبيعة الأندلسى ، فكان يُكثر متعمدًا عن شعر الطبيعة دون موجب
ملح .. مات بعض أصدقائه فرثاه بقوله :

فِى كُلِّ نَادٍ مِنْكَ رَوْضٌ ثَنَاءِ
وَلِكُلِّ شَخْصٍ هَزَّةٌ الْغَصَنِ النَّدَى

وَبِكُلِّ عَيْنٍ مِنْكَ جَدُولُ مَاءِ
غُيِّبَ الْبُكَاءُ وَرَنَةُ الْمَكَّاءِ

وهذا تلفيقٌ ذهنى مفتعل ما كان أغنى ابن خفاجة عن نَسْجِهَ لو لَمْ يَعلِقْ بِنَفْسِهِ أَنَّهُ
شاعر الطبيعة ، فلا بد أن يتحدث عنها فى الرثاء ، مع أن عاشق الطبيعة يتحدث عنها
غفواً دون سبق الإصرار ، يتحدث عنها فى كل غرضٍ : من نسيبٍ ، ورثاء ، ووصف ،
وعتاب ، وحكمة ، فترى روحها تملأ الأبيات ، وتطالعك شفاقة رفاقة من خلال الفكر
والتصاوير ، أما أن يتعمدها الشاعر تعمدًا فى الرثاء فهذا ما يوحى أنها الأصل ، وأن
الميت لا يساوى عند صاحبه شيئاً ! ولكن المجال مجالٌ إظهار عبقرية شعرية يتوق ابن

خفاجة أن يتحدث بها الناس .. كانت جريدة الأهرام تنشر - أثناء الحرب العالمية الثانية وما قبلها بقليل - مقطوعات فى وصف الطبيعة بالريف المصرى بإمضاء شاعر البرارى ، وهو - رحمه الله - صديق مخلص ، وقد زُرته مصادفةً يوم وفاة جبرائيل تقلا صاحب الأهرام ، فقال لى إنه سيرثى الفقيد ولكنْ بأسلوبه الخاص ! فاستفسرتُ عن مُراهه ، فقال لقد عهدنى قراء الأهرام أكتب عن الورد والياسمين والنَّهر ، فلا بد أن يكون رثائى كذلك ، وسترى براعتى ! هكذا قال ، ثم نشرت الأهرام بعد ذلك من رثائه ما لا يخرج عن قوله إنّ الندى قد انقطع فمال الياسمينُ إلى الأرض ليعزيها ! .. ولو كانت الأبيات لدىّ لذكرتها ، ولكنى تذكرتها حين قرأت أبيات ابن خفاجة فى رثاء صديقه ، لأن المنزع واحد بين الرجلين - على اختلاف الزمان والمكان .

وسننصف ابن خفاجة إنصافاً يرتفعُ به عن شعراء الطبيعة لعهدده حين نذكر حديثه عن القمر والجبل ، فقد كان إذ ذاك شاعر الطبيعة بحقّ ، إنه لم ينظرْ إلى القمر فى اكتماله فيراه قُرْصاً من لُجَيْنٍ^(١) ، ولم يتذكر طفولته وهو هلال بعدُ ، فيجدّه زورقاً من فضةٍ قد أنقلته حمولةٌ من عنبر ، ولم ير شحوبه قبلَ المحاق فيراه حسناء مريضةً طال عليها الهجر كما نسمعُ من بعض الشعراء ، ولكنه يصيخُ إلى نجواه ، ويتمنّى أن يُحدثه فى سمائه عن شجونه وآلامه ! ويقول إنه لو تحدث لحازَ الجمالين مِنْ خُبر ومن خبر ، وإن سَكَتَ فإنه صاحبُ الصمتِ البليغِ الواعظ ، وإنْ بكى فعن شجو يفجّر عين الماء بالحجر ! استلهاهم بديع حقاً ، ومحاولةٌ شاعريّة لفهم هذا الكوكب المتألق ، واستبطانٌ عميق لمشاعره ، ونبش حصيف عن خوافيه يفصح عنه قول الشاعر :

ولقد أصخْتُ إلى نجواك من قمرٍ	وبت أدلج بين الوعى والنظرِ
لا أجتلى مُلحاً حتى أعى ملحا	عدلاً من الحكم بين السمع والبصر
وقد ملأت سواد العين من وضّح	فَقَرَطُ السمع قُرطُ الأنس من سمرِ
فلو جمعت إلى حُسْنِ مُحاورَةٍ	حُزّتَ الجمالين من خُبر ومن خُبر

(١) اللُجَيْنُ : الفِصَّة .

وإن صَمَتَ ففى مرآلُ لى عظة
تمرّ من ناقصٍ طوراً ومكتملٍ
والناس من مُعرَضٍ يلهو وملتفتٍ
تلهو بساحات أقوام تحدّثنا
فإن بكيتُ وقد يبكى الخليل فعنْ

قد أفصحت لى عنها ألسُن الصبر
طوراً ومن مرتقٍ طوراً ومنحدرٍ
يرعى ومن ذاهلٍ ينسى ومُدكِرٍ
وقد قَضَوْا فمضوا أنا على الأثرِ
شجو يفجّر عين الماء فى الحجر !

هذه نفثة شاعر طال عهده ، بالطبيعة ومارس القول فى أفانينها المختلفة ، مقلّداً تارة ومبتكراً تارة أخرى حتى استطاع بعد لأيٍ أن ينفذ إلى اللباب من جوهر الأشياء ، وأن يرى فى المظاهر الخارجية دلائلَ سافرة عمّا يُستكن تحتها من معانٍ ورموز .. وربما كان ابن خفاجة على استعدادٍ أن يُبدع فى هذا المجال لو رأى من ناقدى عصره من يشدّ على يديه ويهنئه بمنهجه الجديد ، ولكنّ طبيعة الجو الأدبى إذ ذاك لم تكن تسمح بوجود هذا الناقد الحصيف ، على أن بواعث الاستبطان كانت لدى الشاعر فى وقتٍ ما من أوقات حياته أقوى وأعمق من أن يتشاغل عنها بالأوصاف الحسية دون تأملٍ واستشفاف ، فقد وقف ابن خفاجة أمام الجبل مرتين ، فكشّف له فى الأولى عن بعض سرّه حين قال عنه فى إيجاز :

وصهوة عزمٍ قد تمطّيتُ والدُجى
وأشرف طمّاح الذؤابة شامخ
وقورٌ على مرّ الليالى كأنما
تمهّد منه كلّ ركنٍ ركانةً
ولادّ به نسرُ السماء كأنما
فلم أدّر من صمّت له وسكينة

مُكبٌّ كأن الصّبح فى صدره سرٌّ
تمنطق بالجوزاء ليلاً له خصرٌ
يصيحُ إلى نجوٍ وفى أذنيه وقْرٌ
فقطّب إطرأً وقد ضحك البدرُ
يحنُّ إلى وكّر به ذلك النسرُ
أكبره سنّ وقّرت منه أم كبرُ

أما الوقفة الثانية فلا نرى من شعراء العربية إلى الآن من حاول أن يأتى بإبداعها البالغ ، فقد استطاع ابنُ خفاجة أن يتسمّع صوتَ الجبل عن رهافة أذنٍ ولطافة حسّ ، فحدّثه الطود باكيّاً متأثراً ، ذاكراً تاريخه الحافل مذ كان ملجأً لقاتل ، أو موطناً لناسكٍ

عابد ، وقد بات فيه المدجون بالليل ، واستظل بجانبه المقيلون بالنهار ، فالفهم وألفوه ، واستطاب مقامهم واستطابوا ، فما خَفَقُ أَيْكِهِ الْآنَ غَيْرَ أَضْلَعِ رَاجِفَةٍ ، وما نُوحُ حَمَائِمِهِ غَيْرَ صَرْخَةٍ نَادِبٍ يَبْكِي فِرَاقَ أَحَبَّتِهِ ، فإلى متى يَبْقَى لِيَسْتَقْبِلَ حَبِيبًا ثُمَّ يُوَدِّعُهُ بَعْدَ حِينٍ ؟ وإلى متى يَبْقَى لِيَرعى الْكَوَاكِبَ ، فَمِنْ طَالَعِ أُخْرَى اللَّيَالَى وَغَارِبِ ؟ ! لقد نقل الشاعر حديثَ الْجَبَلِ فَسَحَرَ النَّاسَ وَأَدْهَشَهُمْ حِينَ قَالَ :

وَأَرَعَنَ طَمَاحَ الذُّؤَابَةِ بِأَذْخِ
يَسُدُّ مَهَبَّ الرِّيحِ عَنْ كُلِّ وَجْهَةٍ
وَقُورٍ عَلَى ظَهْرِ الْفَلَاةِ كَأَنَّهُ
يَلُوثُ عَلَيْهِ الْغَيْمُ سُودَ عَمَائِمِ
أَصَحْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ أَخْرَسُ صَامِتٌ
وَقَالَ الْأَكَمُ كُنْتُ مُلْجَأَ قَاتِلِ
وَكَمْ مَرَّبَى مِنْ مُدْلِجٍ وَمُؤْوِبِ
وَلَا طَمَ مِنْ نَكْبِ الرِّيحِ مِعَاطِفِي
فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ طَوَّهْتُهُمْ يَدُ الرَّدَى
فَمَا خَفَقُ أَيْكِي غَيْرَ رَجْفَةٍ أَضْلَعِ
وَمَا غَيْضُ السُّلُوفِ دَمْعِي وَإِنَّمَا
فَحَتَّى مَتَى أَرعى الْكَوَاكِبَ سَاهِرًا
فَرَحْمَاكَ يَا مَوْلَايَ دَعْوَةَ ضَارِعِ
فَأَسْمَعْنِي مِنْ وَعْظِهِ كُلِّ عِبْرَةٍ
فَسَلِّ بِمَا أَبْكِي وَسَرِّ بِمَا شَجَا
وَقُلْتُ وَقَدْ نَكَبْتُ عَنْهُ لَطِيفَةً

يُطَاوِلُ أَعْنَاقَ السَّمَاءِ بِقَارِبِ
وَيَزْحَمُ لَيْلًا شُهْنَهُ بِالْمَنَاكِبِ
طَوَالَ اللَّيَالَى مُفَكِّرٌ فِي الْعَوَاقِبِ
لَهَا مِنْ وَمِيضِ الْبَرْقِ حُمْرُ ذَوَائِبِ
فَحَدَّثَنِي لَيْلُ السَّرَى بِالْعَجَائِبِ
وَمَوْطِنُ أَوَّاهٍ تَبْتَلُ تَائِبِ
وَقَالَ بَظُلَى مِنْ مَطَى وَرَاكِبِ
وَزَا حَمَ مِنْ خَضِرِ الْبَحَارِ غَوَارِبِ
وَطَارَتْ بِهِمْ رِيحُ النَّوَى وَالنَّوَائِبِ
وَلَا نُوحُ وَرَقَى غَيْرَ صَرْخَةٍ نَادِبِ
نَزَفْتُ دَمْعِي فِي فِرَاقِ الصَّوَاكِبِ
فَمِنْ طَالَعِ أُخْرَى اللَّيَالَى وَغَارِبِ
يَمْدُ إِلَى نَعْمَاكَ رَاحَةً رَاغِبِ
يُتْرَجَمُهَا عَنْهُ لِسَانُ التَّجَارِبِ
وَكَانَ عَلَى عَهْدِ السَّرَى خَيْرَ صَاحِبِ
سَلَامٌ ، فَإِنَّا مِنْ مُقِيمٍ وَذَاهِبِ !

تُعَدُّ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ ذُرْوَةَ اكْتِمَالِ شَعْرِ الطَّبِيعَةِ فِي الْأَنْدَلُسِ ، وَقَدْ بَلَغَ التَّشْخِصَ فِيهَا مَبْلَغًا لَا نَجْدَهُ إِلَّا عِنْدَ كِبَارِ الشُّعْرَاءِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ ، وَلَوْ ذَهَبَ جَمِيعُ مَا قَالَ

ابن خفاجة ، وبقيت وحدها لكانت معجزة إبداعه ودليل تفوّقه ، بل ربما ظننا أن جميع شعره من هذا الطراز ، وقد وُجد من يقول إن ابن خفاجة قد استلهم قول المجنون فى جبل «التَّوبَاد» .

وأجهشتُ للتوباد حين رأيتهُ وكَبَّرَ للرحمن حين رَأَيْنى
فقلتُ له قد كان حولك جيرةٌ وعهدى بذاك الصَّرم منذ زمانٍ
فقال مَضَوْا واستودعونى زمانهم ومن ذا الذى يبقى على الحدَّانِ؟^(١)

وهذا بعيد ، لأن قولَ المجنون خطرة عابرة ، لو وقفَ عندها ابن خفاجة ما بلغ هذا النفاذ ، أما قصيدة الجبل فنَسَقُ شعرى متكامل ، ذو شعاب وأفانين .

ولو كان المجنون - على سبيل الاحتمال - مُوحياً مُوجَّهاً ، لكان لابن خفاجة فضلٌ أثير أن يكونَ موضعَ هذا الإيحاء ، وقد عَبَرَت القرون خلفَ المجنون ، وتوالى عشرات الشعراء فى العربية شرقاً ومَغْرِباً دون أن يبدع أحدهم فى وصف الجبل ما أبدع ابن خفاجة فيأتى بهذا البيان .

هل لنا أن نقول الآن : إن شعر الطبيعة بالأندلس قد خطا نحو التجديد خطوةً أولى مع ابن زيدون ، خطوةً ثانية مع ابن خفاجة ، فأتحف الأدب العربى ببعض الطريف من الجديد ؟!



(١) الحدَّانِ : الليل والنهار .. وحدَّانُ الدَّهر : نوائبه وحوادثه .